# الزمن في قصيدة « الذي يأتي ولا يأتي »

بقلم خليل سليمان كلفت

للزمن (١) الذي اتناوله في القصيدة شقان :

الاول : هو الزمن الروائي .

الثاني : هو الوعي الحاد بالزمن وبعبارة اخرى احساس الزمني بالابدي ( احساس ما هو كائن الان بما كان في الماضي وما يكون في المستقبل ) .

ان الزمن الاول ( الروائي ) ينتمي الى الشكل بصورة مباشرة وان كان الشكل يعكس المضمون ( فهو وسائل تهدف اليه وجماليات تنتج عنه ) فهذا لا ينفي ان ملاحظة الزمن الروائي تتعلق ببناء القصيدة ويمكن ان تستقل الى مدى كبير عن معية المضمون فهذا الزمن يستطيع ان يبرز ويلاحظ منفصلا عن اغراضه لانه درجة من الشكل على مستوى كبير من النضج .

اما الوعي بالزمن ( لقاء الزمني بالابدي ) فهو عنصر من عناصر المضمون يمكن ان يدرس بما هو كذلك ويمكن ان يكون مفتاحا الى ملاحظات كثيرة تتعلق بشكل القصيدة .

وقبل ان اتكلم عن هذا النوع الثاني من الزمن باعتباريه ، احاول ان اكتشف البناء الزمني للقصيدة وهو النوع الاول .

من المعروف ان ابسط اشكال الزمن الروائي هو الزمن الرأسي ، وهو ملاحظة الاحداث ووصفها متعاقبة كما حدثت بدون رجوع الى الماضي او قفز الى المستقبل . ولا بد ان يكتشف القارىء عقم هذا الشكل البسيط اذ ان الماضي والحاضر والمستقبل تلتقي في اللحظة ولا يمكن ان توصف اللحظة وصفا متكاملا دون وضعها في مكانها من الزمن بالرجوع الى احداث الماضي والحدس بالمستقبل ، ولا بد ان اللحظة تبقى نكرة الى ان تعرف بالاضافة الى ماضيها والاشارة الى مستقبلها. ومفهوم بلا شك ان سرد احداث وقعت في الماضي له ايضا ماضي الماضي ومستقبل الماضي حيث ان ذلك الماضي كان حاضرا ( حاضر الماضي ) .

في « الذي يأتي ولا يأتي » نجد السمة الاساسية للحاضر . ففي ذانه الحاضر هنا انتظار . نحن هنا والان في جحيم نيسابور ولكننا في ذات الوقت نلاحظ ان هذا الجحيم ينفي ذاته وننتظر النهاية المحتومة . نحن اذن هنا واسنا هنا . التاج الذي دفعتا سعادة الطفولة ( في الماضي ) ثمنا له وصنعناه ( للمدينة الفاضلة البعيدة ـ لامنا الارض التي تولد كل لحظة جديدة ) ( في المستقبل ) ننتظر ان نضعه على رأس تلك المدينة عندما يبزغ نجمها في الافق . ان قلقا عظيما يعيش في قلب الحاضر فيقلبه دائما الى تجاوز . التفاصيل الدقيقة عن آلام الماضي والحاضر التي تؤكد وجودها بقوة ينسحب منها الوجود فلا يكاد المرء يصدقها . ان مقارنة الحاضر بالماضي والمستقبل هنا يخلق مفارقات شديدة العمق بحيث يعود هذا الحاضر غريبا لا يقينيا بعيدا عن التصديق .

ان الحاضر ينفي نفسه في الاتصال والتاريخية historicity فما يحدث الان له جذوره في الماضي وفروعه في المستقبل ، وقلق التاريخية هو الذي يجعل الفاعل يكاد ان يرتعب من افعاله خشية ان تكون اسبابا لنتائج لا يستطيع التنبؤ بها وخشية ان تعبر هذه الافعال عن حتمية تجعل هذا الماضي ( الذي يثور عليه ) هو المهيمن على افعال الحاضر .

وسوف نلاحظ هذه الصفات الاساسية للزمن من خلال :

اولا ـ في البناء : التمهيد والتكرار .

ثانيا ـ في النسيج : ١ ـ الصراع بين افعال الماضي والحاضر والمستقبل . ٢ ـ الرموز . ٣ ـ الضمائر .

اولا ـ في البناء : « التمهيد والتكرار » .

قلت ان السمة الاساسية للحاضر في « الذي يأتي ولا يأتي » هي نفي الحاضر وهذه السمة تبرز منذ بداية القصيدة فصورة الفلاف لا ترسم فقط صورة حركة الحاضر ولكنها تقدم نفسها كحلم وأمل وغاية، واذا كان الشكل الاساسي للبناء ـ كما قلت في القسم الاول من هذا المقال ـ هو هذه الصورة التي نأخذها ككل في نظرة جامعة ثم نتأمل فيها فترينا المتناقضات التي تحتوي عليها ، فان من الواضح أن ( صورة على غلاف ) هي المستقبل الذي ننظر من خلاله الى الواقع فنرى فلاعه تنهار، وهكذا تكون محاكمة الواقع بالمقارنة بالمستقبل اليقيني وهي تتم على عدة عناصر . فهذا واقع يحتوي على الحلم والقصيدة تصدرهما :

الاول .. بتحديده وتوضيح ابعاده والتأريخ له ـ هذا هو الواقع ـ اما الحلم فيتطلع دائما الى محو القبح ونمو الجميل .. الى زوال الاشياء المؤلمة من عالمنا ونمو وازدهار واكتمال الاشياء الجميلة الرائعة .

الواقع هو ( جحيم نيسابور ) اهله « غول جياع » « جثث » « ممثلون فاشلون » « فانون » « شحاذون » « كلاب » « نفايات » « اصفار تدور » « نمل » « ثيران » « محاصرون » « وافمون في الشرك » « محروبون » « يكبرون » « شعرهم يشيب ويتجعد » « تموت فيهم كل الاشياء الجميلة » .

ومدينة الواقع ( نيسابور الجحيم ) « بقي » «مفتوحة» « يضاجعها الغزاة ويبصقون في وجهها » « مدينة ثرثارة » « فذارة » « مدينة الحديد والاحجار » « مدينة النمل التي تحكمها الارقام والبنوك » « مملكة الموت » « خرائب كئيبة » « حجر » « تابوت » « نقش على الحائط » « نفق مسدود » « مدار مغلق » « ساحة اعدام » « صورة ممزقة » « بطن حوت » « حية سميكة الجلد » « هياكل منهارة » « مقابر من الحديد والبنوك » « جدران من الزور » « غارقة في الوحل » « والليل في الدروب » « يزحف الدود على وجهها المجرور » « نفاية غريقة » « اكذوبة بلقاء » « الساسة المحترفون يشخرون خشب التابوت » « الساسة المحترفون ورجال المال والبنوك ـ سادة هذا العالم المنهوك ».

هذا هو الواقع تقول ! شارات انه مدار مغلق ( العيش فيه انتحار) وتقول ان « الموت في كل مكان ـ فيه ـ ضرب الحصار » وتقول ان « الكل باطل وقبض الريح » وتقول ان ليله في كل مكان وان ديك هذا الليل مات ( لا فائدة ) ( الطريق مسدود ) .

لكننا نعود الى الصورة التي كانت على الغلاف ـ صورة رحيم ( الحق ان رحيما كان على استعداد لدفع اي ثمن مقابل الصورة التي على غلاف الكتاب ، صورة سلطان على صهوة جواده يعمل سيفه في جسد احد الكفار ) (١) . قلت اننا ننظر من خلال هذه الصورة ( الغاية

(١) راجع القسم الاول من هذا البحث في عدد يوليه الماضي من الاداب .

(١) مسرحية ( محاكمة في نيسابور ) عبد الوهاب البياتي ١٩٦٣

التي نعمل من اجلها ) الى الواقع فنرى قلاعه تنهار .

فهذا الواقع « مفارة في داخلها بحر » « محارة تنام فيها امراة » « ارض بور ولكن البذور فتحت عيونها في باطنهـا » باختصار ( ليس مدارا مغلقا ) هذا تعرف يأتي بتحول عظيم في فهمنا للواقع ( الواقـع يمكن فهمه ويمكن تغييره ) ( الواقع مفهوم والعمل على تغييره يجري على قدم وساق ) قال برشت : « لان الاوضاع على ما هي ، فانها لـن تبقى على ما هي » (1) ولان الواقع الذي تصوره القصيدة هكـذا فان لـن يبقى هكذا ( يجب ان يتغير ) ( انه ـ بالفعل ـ يتغير ) ونحـن الذيـن رأينا الحلم الوحيد الذي يشير اليه هذا الواقع قد رسمنا صورة الحلم وانما من خلالها ننظر الى هذا الواقع .

ها هو الحلم : صورة الغلاف : غايتنا التي تعرف اسبابها ( كـان على جواده ، بسيفه البتار ـ يمزق الكفار ـ وكانت القلاع ـ تنهار تحت ضربات العزل الجياع ) . لقد انتقلنا من الواقع الـى الحلم : الحلـم المتعلق بزوال ألم .. ان التمهيد ( الاشارة الى المستقبل ) يشير الـى خط مستمر على طول القصيدة : « ولتحرق الصاعقة الجسور » « ايتها السحابة ! ـ لتغسلي ذوائب المدينة الثرثارة ـ وهذه القذارة » « فحول رأس القيصر النسور ـ تحوم والامطار ـ تغسل جرحك الدفين ، تغسل الاشجار » « ارى بعين الغيب نيسابور تحوم حـول رأسها النسور ـ يسلخ جلدها وتشوي حية في النار ـ ارى الغابين على الاسوار ـ والملك الحمار ـ يباع في الاسواق » « وددت لو اغرقت هـذا المركب الملـيء بالجرذان ـ وهذه المدينة الموسمة الشمطاء » « ايتها المحارة ـ تكسري، تطايري ، نقمصي العبارة ـ واندلعي شرارة ـ تحـرق نيسابور ـ تغسل وجهها البليد الشاحب المقرور » « انهيار هـذه السدود » « لزلزلت مقابر الاسمنت والحديد والبنوك » « وانحسر الظل عن الصورة وانـدك جدار الزور » « والبهلوانات على الحبال ـ ذابوا كمـا يذوب مسخ الليل في النهار » .

والحلم لا يرسم الصورة التي نريد احرافها فقط ولكـن ايضا الصورة التي نريدها ان تكون « فالفجر في الدروب » ونحن في انتظار « المدينة الفاضلة البعيدة » « مدينة ـ لم يقف الشحاذ ولم يسند على رصيفها جبينه » « الحديقة » « الحقيقة » « حقول النور » « امـرأة تنام في محارة » « صبية ناضرة البكارة » « الجنائن المعلقـة » صورة مجتمع تطهر من الادران وانطلق ( في طرق لم يسلكها انسان ) جنـة الارض ( ما لا عين رأت ) اما انها تأخذ شكل العودة الـى الفردوس المفقود والعصر الذهبي ( جنائن بابل المعلقة مثلا ) فانني اعلقه قليلا .

ان صورة الحلم لا تبقى استاتيكية كما يؤخذ من الفقرة السابقة ، بل انها تأخذ شكلا نضاليا عندما تجد رمز تلك المدينة الفاضلة البعيـدة ( نيسابور الجديدة ) في عائشة : ان عائشة التي يسحبها الزمن الـى الخلف ، نحاول نحن ان نمسك بها وان نقبض عليها طول الوقت ، ورسم صورة عائشة ضروري هنا :

والاشارة الاولى تاتي في الجزء الثاني من القصيدة ( الطفولـة ) : « ـ قالت ، ومدت يدها : أهواك ـ وابتسم الملاك ـ وغاب في الجدار » ( لندع الان مسالة الاستحالة فسوف نتكلم عنها مستقبلا ) وبعد هـذا التمهيد الروائي الذي يصيبنا بالقلق ازاء هذه التي مدت يدها وقالت : أهواك وابتسمت كالملاك ثم غابت في الجدار تصل الـى الجزء السادس ( الوني لا ينامون ) فنلتقي بعائشة لقاء كاملا « عائشة ماتت ، وها سفينة الموتى بلا شراع ـ تحطمت على صخور شاطىء الضياع ـ قالت ، ومدت يدها : الوداع » « عائشة ماتت ، ولكني اراها تذرع الحديقة ـ فراشة طليقة ـ لا تعبر السور ، ولا تنام . ـ الحـزن والبنفسج الذابـل والاحلام ـ طعامها من هذه الحديقة السحرية » وعائشة اذن رمز المدينة الفاضلة ولهذا فان موتها ( اليأس من عودتها ) يعني موت الشعر ( فهي اوريديس بالنسبة الى الشاعر اورفيوس ) وهي نهر الشعر « ومات فـي داخلك النهر الذي ارضع نيسابور » ، ولهذا ايضا فهي تأخـذ صورة عشتار فتموز لن يعود للحيـاة الا اذا مارس معهـا طقوس الاخصاب « وايقظى النهر الذي في داخلي مات ورشي النور ـ في ليل نيسابـور ـ ولتبذري البذور ـ في هذه الارض التي تنتظر النشور » .

نقف قليلا : المدينة الفاضلة ليست استاتيكية ومن ارتباطهـا بصورة عائشة تأخذ ديناميكية نضالية ( فعائشة لا تؤخذ الا غلابا ) ولا بد من كسر عنق الزمن ولا بد من احراق الجسور وانهيار القلاع والسدود، وهي تنتظر فارس الصورة التي على الغلاف « تنتظر الفارس يأتي من بلاد الشام » « يأتي ولا يأتي ، اراه مقبلا نحوي ، ولا اراه ـ تشير لي يداه ـ من شاطىء الموت الذي يبدا حيث تبدأ الحياه » ويقترن مجيئه بعودة عائشة « تعود لي من قبرها المهجور ـ تمسح خدي وتروي الصخر والعظام » ان هذا اللقاء هو لقاء اخصاب في شكل ينحدر من الثقافـة البابلية « بابل تحت قدم الزمان ـ تنتظر البعث ، فيا عشتار ـ قومي، املئي الجرار ـ وبللي شفة هذا الاسد الجريح » « لكنما عشتار ـ ظلت على الجدار ـ مقطوعة اليدين ، يعلو وجهها التراب » والاخصاب لا يتم والقسوة الحجرية التي نرتطم بها تبكينا ( بكائية ) والبكاء تعبير عـن اليأس وشعور هاملت العائد من الموت ( في انجلترة ) الى البحث عن الحياة ( في الدانمرك ) وهو يفاجأ بالقبر الذي يحفر من اجل اوفيليا هو شعور بطل القصيدة « تتبعني جنازة الشمس الى الابد ـ من ها هنا انزلها الحفار ـ للقبر وهي في ثياب العرس ، فوق راسها تـاج مـن الازهار » « اتبع موتها ، بلا دليل ـ اجر خلفي سنوات حبها كذيـل ثوب فاقع طويل » واليأس يستبدل « فالليل في الدروب » بـ « فالفجر في الدروب » ولكن هذا اليأس يقود الى تعرف سوف يكون سببا فـي تحول عظيم ( انت تبحث عن عائشة : انها ليست هنا ، ولا بد لكـي تجدها ان تترك وجه نيسابور ( الجحيم ) الى الوجه الاخر ، اذهب و ( ثـر ) « على الطفاة والالهة العمياء ـ والموت بالمجان والقضاء » ) ايتها الغاية التي ضلت سبيلها ، ابحثي عن الوسائل الجديرة بـك والتحمي بها واتركي البكاء وابحثي عن كل بذرة تنمو في هذا الجحيـم وتقمصيها وتحققي من خلالها ( الغاية التي تعرف وسائلها ) لقد عرف بطل القصيدة شيئا جديدا ( اكتشافا ) .

ان ملاحظة الاشياء العظيمة التي تنمو هي الاكتشاف وسـوف يتعلق الحلم منذ الان بتلك الاشياء . وفي صورة الغلاف ـ التي نرى فيها كل شيء ـ راينا « القلاع تنهار تحت ضربات العزل الجياع » و ( الفجر في الدروب ) معلق على تلك الضربات في جزء ( الطفولة ) « البشر الفانون في مدينة الحديد والاحجار ـ تسلقـوا الاسوار ـ ونصبوا الشراك » ( يلاحظ ان عائشة تاتي لاول مرة في القصيدة فـي البيت التالي لـ « ونصبوا الشراك » ـ اشارة الى محاولة ايقـاع عائشة في الفخ الذي نصبه « البشر الفانون » « العزل الجياع » ـ اشارة الى محاولة اصطياد المدينة الفاضلة البعيدة في الفخ ـ واشارة الى ان هذه المدينة الفاضلة التي ننتظرها من نصيب البشر الفانين الذين طال بهم القهر والظلم والذين هم وحدهم جديرون بها ) « البشـر الفانون ـ يحطمون بيضة النسر ، ويولدون ـ من زبد البحر ومن قرارة الامواج ـ من وجع الارض ومن تكسر الزجاج » يمضون فـي الطـريق الصعب ( فوق السراط ) « اقدام جرذان على السجاد ـ مرت ، وبار ومضت من خلل الرماد » والمستقبل الذي يرتبط به هؤلاء البشر مرتبط بالعمل ومن خلال العمل سوف يشقون طريقهم نحو النور ولهذا ياتي الحلم الذي يتكرر دائما « البشر الفانون يولدون ـ من زبد البحر ومن قرارة الامواج ـ من وجع الارض ومن تكسر الزجاج » مباشرة بعد هـذا البيت « ثور حراثة يشق الارض في اصرار » .

فلت في القسم الاول من المقال : ان القصيدة اخذت شكل التأمل ومن هنا كان الخيام ـ الذي ننظر من خلاله الى كل ما في القصيدة . واذا كانت القصيدة تتكلم عن البشر الفانين الذين يولدون من جـديد فالخيام واحد منهم وهو البطل الذي تعرضه القصيدة .

وامام بطلنا مثل ( للمقارنة ) ( للمفارقة ) هو بطل صورة الغلاف

---

(1) ارنسلت فيشر : الاشتراكية والفن ، ترجمة اسعد حليم ، كتاب الهلال ص ١٤٥ .

« كان على جواده ، بسيفه البتار ـ يمزق الكفار » وهو في سبيله الى تحقيق المثل يقدم تضحيات منذ الطفولة « بثمن الخبز ، اشتريت زنبقا ، ـ بثمن الدواء ـ صنعت تاجا منه للمدينة الفاضلة البعيدة » والزمن يقفز بنا من الطفولة ( في حانة الاقدار ) « وانت في الغربة لا تحيا ولا تموت » ومنذ الان يوضع الخيام المنفي هذا الوضع الحرج وهو يمتحن امام هذا العجز التام « اصابك السهم فلا مفر ، يا خيام ـ والتحسب الديك حمارا انها مشيئة الايام » ان عليه ان ( يوقد الفانوس ويبحث عن الفراشة ويشرب ظلام النور ويحطم الزجاجة ) ولكنه في عجزه ليس له غير « .. الخمر في الاناء ـ فعب ما تشاء ـ بقية السماء ـ او قدح البكاء ـ في حانة الاقدار » .

ان هذا الخيام المنفي الذي «في سنوات الموت والغربة والترحال» كبر وشاب شعره وتجعد وجهه وماتت احلامه « ومات في داخلك النهر الذي ارضع نيسابور » يحاصر تماما « والموت في كل مكان ضـرب الحصار » ويجب عليه هو العاجز ان يدفع الالام والسجون والاصفاد ثمنا لشهادة الميلاد ، وليس امامه غير مثل الواقع الوحيد « فقير هذا العالم الجواب ـ ينام في الابواب » ولا يملك شكل التأمل في هذه الحالة الا ان يغذي عجز الخيام ( المستسلم ) بكل بطولات الانسانية فيخلق بطلا عظيم العظمة عظيم المهانة ( هو الشهيد الذي يقدم دمه من اجل عيون المدينة الفاضلة : المهان في هذا العالم في الوقت ذاته ) .

ان هذا الشهيد يجد احد رموزه في لوركا « يجر وافقا للموت في الميلاد » ( لا بد من الاشارة هنا الى الارنب المذعور وقد مهدت له القصيدة في الجزء الرابع ( في حانة الاقدار ) بالظبي « الظبي في الصحراء ـ وراءه كانت كلاب الصيد تجري في المساء » ثم في الجزء الخامس ( طردية ) نرى الارنب المذعور « تنهشه الكلاب » « يموت تحت قدم الصياد ـ مخضبا بدمه الاوراد » ويأتي لوركا بعد هذا مباشرة ويوصف بالصفات نفسها ) وفي الجزء التاسع ( العودة الى بابل ) ترد الى لوركا ( الذي مات وافقا ) ( قتله الاعداء ) كرامته « معجزة الانسان ان يموت وافقا ، وعيناه الى النجوم ـ وانفه مرفوع ـ ان مات او اودت به حرائق الاعداء ـ وان يضيء الليل وهو يتلقى ضربات القدر الغشوم » وعندما يأتي التعرف ( فعد لنيسابور ـ لوجهها الاخر ، يا مخمور ـ وثر على الطغاة والالهة العمياء ـ الموت بالمجان والقضاء ) فان مرحلة تبدأ نلتقي على طولها ببطلنا الانسان الشهيد وهو يمتحن في مواقف كثيرة .

وفي الجزء الحادي عشر ( الحجر ) « تهرأ الخيام ـ وسقطت اسنانه ، ( رمز من رموز العجز الجنسي الفرويدية فهو لم يعد قادرا على ممارسة طقوس الاخصاب مع عشتار ) وجفت العظام ـ وهجرت يقظته عرائس الاحلام ـ والدود فوق وجهه فار وفي الاقداح » وهو في صورة السندباد « جنية البحر على الصخرة تبكي : مات سندباد ـ وها انا اراه ـ بورق الجرائد الصفراء ، مدفونا ، ولا اراه ـ : مركبه يباع في المزاد ـ وسيفه يكسره الحداد ـ من يشتري عبدا طروبا ؟ قالت الاصفاد » ( عجز تام يرتطم به ) ولكنه ليس العجز ما يأتي في الجزء الثاني عشر ( الموت ) ولكنه الاخصاء ( امام الموت ) ويكاد جزء الموت ان يكون تأملا حرا ( خارج الزمن ) ( في المطلق ) نلتقي بعده في الجزء الثالث عشر ( الوريث ) ببطلنا ذليلا مهانا ( مخصيا بكلمة واحدة ) وقد كان جزء ( الحجر ) تمهيدا لهذا الانسان الذي نقابله في ( الوريث ) « وريث هذا العالم ـ الانسان ـ يحوم حول سوره عريان ـ فاكهة محرمه » ( ومدن بلا ربيع مظلمة ـ مفتوحة ، مستسلمة ـ تحيا على الفتات ) « يلهث مهزوما على قارعة الطريق ـ يحمل وجه هالك غريق ـ ينام في المقهى ، ككلب جائع ، افاق » ( يبحث عن وظيفة شاغرة في صحف الصباح ) « يعدو بلا اقدام » « تأكله الحمى ، تدير رأسه الارقام » ( وريث هذا العالم ، المهان ـ يبحث عن مكان ـ يموت فيه صاغرا ، كالكلب ، بالمجان ) .

نقف قليلا : ( نقارن ) « كان على جواده بسيفه البتار ـ يمزق الكفار » ولكن بطلنا ( ممزق شر ممزق ) ولكننا نعود دائما الى المثل العظيم ( معجزة الانسان ) .

وفي الجزء الرابع عشر ( الليل في كل مكان ) يقف « منسحقا مقرور » ويقول ( ـ الموت في كل مكان ، وانا انتظر الاشارة ) ليس كبرا ولا طول لسان هذا الذي نسمع : انه خيط الدم هذا الذي يوصله بنضال الانسان كله في سبيل كرامته « البشر الفانون في الظهيرة ـ يمارسون لعبة الحياة ـ والموت في المسيرة الطويلة ـ يحترقون ليضيئوا: شرف الانسان ـ ان لا يموت راكعا منسحقا مهان ـ كالكلب تحت عجلات العار ـ وان يعيش في خطوط النار ـ منتصرا ، حتى وان حاقت به الهزيمة . » وفي خيط الدم تلتقي نضالات البشر « خيط دم يجري على الارض الموات ، في عروق النور » ( وولد الانسان من جديد ـ شجيرة من خلل الرماد والجليد ـ مزهرة ، وصيحة اطلقها وليد . ) واذا كان الجزء الاول ( صورة على غلاف ) يصنع اسطورة النصر فان الجزء السادس عشر ( خيط النور ) يصنع اسطورة النضال الذي يؤدي الى ذلك النصر ( اسطورة الوسيلة ) . وتجتمع هنا صورة الوريث بجانب صورة نضاله ( يبيع في مطار روما علب الكبريت ـ وصحف الصباح والازهار ) ( في الهند يعلو وجهه اصفرار . ) ( يعدم رميا بالرصاص ، عاريا يولد او يموت ) ( يجهش في البكاء ) ( يكتب فوق حائط السجن ، وفوق جبهة المدينة ـ اشعاره الحزينه ) ( مناضلا يموت في مدريد ـ مضرجا بدمه وحيد ـ تحت قرون الثور أو في ساحة الاعدام ) ( تلخيص للتجربة التي بدأت منذ الجزء الحادي عشر ( بكائية ) ) وتتبين ان كل هذا رافد من روافد نهر الدم ( الدم في كل مكان ساخنا يسيل ) ( رأيته : يمتد من جيل الى جيل كخيط النور ) ( يلمق في لسانه المحاره ـ يفتضها ، يغتصب العباره ـ يعيدها صبية ناضرة البكاره . ) ويخرج الانسان من خيط النور ( منتصرا حتى وان حاقت به الهزيمة ) ( رأيته : يولد في مدريد ـ في ساحة الاعدام او في صيحة الوليد ـ متوجا بالغار ـ تحوم حول راسه فراشةمن نار ) وينتصر الايقاع الاصلي بانتصار الانسان ( بانتصار البشر الفانين الذي يصنعون مدينة حلمهم العظيم ) ( وولد الانسان ـ من زبد البحر ومن قرارة الامواج ـ من وجع الارض ومن تكسر الزجاج ) .

والتكرار : هو الوجه الاخر للعملة فأي شيء سيفت الاشارة اليه يكون تكرارا والتماثل analogy في التكرار ( اي تكرار حدث واحد او فكرة واحدة في حالة جديدة كل مرة ) مثل « عائشة » : ( اللقاء مرة والوداع اخرى ) يعمل ايضا على ابراز السمة الاساسية في القصيدة وهي ان ( الحاضر تجاوز مستمر ) .

ثانيا : في النسيج :

١ ـ الصراع بين افعال الماضي والحاضر والمستقبل :

الفعل الماضي الذي يجعل النبوءة حقيقة واقعة ( حدثت بالفعل ) ( اليقين ) في الجزء الاول ( صورة على غلاف ) والذي يجعل للنضال تاريخا في الجزء الثاني ( الطفولة ) والذي يخنق نيسابور في الجزء الثالث ( الليل فوق نيسابور ) يخنقها ويحاصرها ليجعل الخروج ملحا، لا يصور عالما منتهيا ( مدارا مغلقا ) بل انه ليضع الحقائق التاريخية فوق قلق التغير ( وكان الحاضر يؤثر في الماضي ) ( البعث ) .

وبالانتقال الى الفعل المضارع « الحاضر » نجده يتجاوز نفسه دائما ، فالشعور الذي نتلقى به ( كبرت يا خيام ) ( هذا الفعل الماضي ) ( الذي معناه « وتكبر الان » ) لا يختلف عن الحاضر ولا المستقبل وهكذا فان الفعل المضارع ( « تنهشه » الكلاب ) يدفع به القلق الى المستقبل وكذلك ( وانت في الغربة لا تحيا ولا تموت ) .

( الخلاصة ) الاحداث موضوعة دائما ( في كل الازمنة ) فوق قلق التغير فالحاضر يبدد الماضي ويتجاوز نفسه نحو المستقبل والمستقبل يظلله الماضي ويسحبه الى الخلف والماضي يخنق وفائه فيخلق الالحاح في الخروج .

٢ ـ الرموز :

ورموز الاخصاب هي التي تهمنا هنا : لان الشيء الاساسي هنا هو التغير ولا تغير بلا اخصاب .

« لامنا الارض التي تولد كل لحظة جديدة » ( الطفولة ) والولادة هي نتيجة الاخصاب ولانه لا يتم في رمز عائشة ( ونرتظم بالحجر ) فان اشارات الاخصاب تتكثر ( وتحاصر الفشل في رمز عائشة ) « وزارعين نخلة » ( في حانة الاقدار ) « الى البحار ، حمل البذور » « ولتبذري البذور ـ في هذه الارض التي تنتظر النشور » ( الموتى لا ينامون ) « فغدا تخضر نيسابور » ( الذي يأتي ولا يأتي ) « أرى البذور فتحت عيونها في باطن الارض وشقت دربها للنور والهواء » « فحقول النور ـ امرأة تولد من اضلاع نيسابور » ( الرؤيا الثالثة ) ( الدم في كل مكان ساخنا يسيل ـ يلعق في لسانه المحاره ـ يقتصها ، يغتصب العبارة ـ يعيدها صبية ناضرة البكاره . ) ( خيط النور ) « لامنا الارض التي تحمل في احشائها جنين هذا الامل المنشود » ( تسع رباعيات ) .

٣ ـ الضمائر :

الحيام بطل القصيدة : انتقاله من غائب الى متكلم الى مخاطب ، عكس تغيرات في الزمن ، وينتقل أشخاص مجهولون أو معلومون واشياء مختلفة بين هذه الضمائر .

والغريب حقا هو ان يوضع حلم البشر الفانين وهم يولدون ككلام صادر من لسان لا نعرف صاحبه ( ان هذا يعرض هذه الحقيقة للشك فهي لم توضع كما ينبغي كحقيقة علمية وانما وضعت قبلها « شرطة » تدل على ان احدا ( ليست بيننا وبينه نقة خاصة ) يتكلم .

انتقل الى النوع الثاني من الزمن ( هذا الوعي الخاص بالزمن ) ( التقاء الزمني بالابدي ) وسوف اتخذه اولا مفتاحا ينظر من خلاله الى بعض عناصر شكل القصيدة :

١ ـ الماضي : ان الاحساس الحاد بالماضي ( لانه مصير كل حاضر ) يملأ القصيدة بالاشارات والاحالات الى الماضي :

الاماكن : نيسابور ـ بابل ـ روما ـ نينوى ـ طيبة .

شخصيات من التاريخ : بوذا ـ الاسكندر الاكبر ـ هوميروس ـ سقراط .

شخصيات من الاسطورة : اورفيوس ـ عشتار ـ تموز ـ اوزريس . وايجاد مثل هذا البعد التاريخي والاسطوري في محاولة وضع الحاضر ( بجانب جذوره ) سوف نتكلم فيه فيما بعد .

٢ ـ المستقبل : ان مقارنة الحاضر من ناحية اخرى بالمستقبل ننتج عنها ( مفارقة ) لا تجعلنا نصدق ونريد ثانية الى الماضي نبحث عن الصور التي تنسحب الى الخلف ( كاعمدة النليفون بالنسبة الى راكب القطار ) :

أ ـ ارم العماد : تنسحب ( تغرق في ذاكرة الاحقاد ) .

ب ـ عائشة : ( : اهواك ) ( : الوداع ) وهي تنسحب « اتبع موتها وراء الليل والابواب ـ كزورق ليس به احد ـ تتبعني جنازة الشمس الى الابد » .

٣ ـ التجميد ( لا بد من التذكير بالفيلم التشيكي « الصرخة » كان الرأي السائد في الفيلم ان حياتنا تفاحة مرة « عندما تحاكم امام المصير » وقد استخدم الفيلم فيما أستخدم طريقة تجميد الشارع الذي يعج بالحياة ( مثلا ) في صورة فوتوغرافية وقد أنتقل مرة ببطلة الفيلم من حالتها المرحلة « في الصورة السينمائية » الى حالات لها في صور فوتوغرافية متعاقبة فكنا نراها مرة منكفئة على وجهها فوق الثلج واخرى نجدها في فزع عظيم وثالثة ننتقل منها الى تماثيل شوهاء بشكل فظيع ) وقصيدة « الذي يأتي ولا يأتي » تستخدم وسائل مشابهة مثل تجميد عائشة في صورة عشتار ( على الجدار ) ( مقطوعة اليدين ، يعلو وجهها التراب ) ومثل تجميدات الجزء الرابع عشر ( الليل في كل مكان) الذي يأتي بعد جزء ( الوريث ) : ( جماجم المونى ، كتاب اصفر ، فيشاره ـ نقش على الحائط ، طير ميت عباره ـ مكتوبة بالدم فوق هذه الحجاره ) وحتى « الجيل الغاضب » يقترن بـ ( نقش على الحائط ) ( كان البحر في المقاره ) ( امرأة تنام في محاره ) .

ثانيا : ننظر الى الزمن بما هو احد عناصر المضمون : مقارنة الحاضر بالماضي والمستقبل والوعي الحاد بهذه المقارنة يخلقان الشك والكفر واللايقين كما يخلقان الانصال والتاريخية .

وهذا القلق الشديد على الاجيال القادمة من المرارات التي ترثها من عناء الانسان تحت الشمس « لو اكل الاباء هذا الحصرم المسموم ـ لضرس الابناء » يعيش في كل شيء ويخلق ( المسئولية ) الكاملة التي يشعر بها كل انسان ازاء الماضي والمستقبل ( الاجيال التي مضت والاجيال التي تجيء لتمضي ) .

من هذا القلق يخرج الالحاح على الانتصار ( الذي يعيش في قلبه الخوف ) « لا بد ان نختار ـ ان نقبض الريح وان ندور الاصفار » والالحاح على ايقاع ( المدينة الفاضلة ) في فخ البشر الفانين ( في رمز عائشة التي ترمز الى تلك المدينة ) ( وعلى الاخصاب في رمز عشتار ) يخلق اشكالا من الشك والكفر واللايقين .

ونحن نحاصر المستقبل ( كما حاصر الآخيون طروادة لاخذ هيلين ) فاننا نشك في انفسنا وهذا الشك هو الذي خلق هذا النشيد الحزين ( ـ مولاي ! قال النجم لي ، وقالت الاقدار ـ باننا ممثلون فاشلون فوق هذا المسرح المنهار ) ( صورة على غلاف ) وان تلك الاحلام العظيمة لتتحول الى اوهام مشكوك في صحتها ( بالمقارنة بالواقع المريض ) « ازهر الحديقة ؟ ـ وتولد الحقيقة ؟ ـ من هذه الاكذوبة البلقاء » « من هذه النفاية الفريقة ! » ( الطفولة ) وننقلب الموازين ( ـ لنقرأ الكتاب بالمقلوب ـ منقبين في حواشيه عن المكتوب والمحجوب ) ( الليل فوق نيسابور ) ( ويقرأ التقويم بالمقلوب ـ بحيلة المغوب ) ( طردية ) ويخيفنا ان يموت الفجر قبل أن ينبلج ( كانرين (١) وهي تلد الحياة ـ ماتت ) ( طردية ) ولا يجد عشاق المدينة الفاضلة غير النحيب ( اهكذا ينتحب العشاق ؟ ) ( طردية ) ومن القلق المخيف يخرج خلق النعامة ( دفنت رأسي في الرمال ) ( طردية ) وتنسحب وجوه الرجال التي هزمها الايام الى الوراء بطريقة فاسية ( اراك بعد الغد ، في المقهى ، وغطت وجهه سحابة ـ من الدموع ، بللت كتابه ) ( الموتى لا ينامون ) ويضحك اليأس في جنون ( ـ ايتها الجنية ! ـ تناثري حطام ) ( الموتى لا ينامون ) ( الكل باطل وقبض الريح ) ( الذي يأتي ولا يأتي ) وبعد الكلام عن اخضرار نيسابور يضحك اليأس ايضا ( كلاب رؤيا ساحر مسحور ) ( الذي يأتي ولا يأتي ) .

من كل هذا يأتي سؤال ( هل هذا اليأس موقف ؟ ) ( مضمون ) ان هذا ليس صحيحا : ان تصوير الواقع البشع والالحاح على ضرورة انتهاء بشاعته وضرورة نمو الاشياء الجميلة والحث على العمل من اجل المدينة الفاضلة وادانة الحياة في هذا الواقع بانها ( انتحار ) باختصار يخلق ( التمرد على هذا الواقع بشدة ) هذا النوع من الشعور الذي هو فلق رجال يعملون وليس يأس جرذان . ان الاستحالة التي يرتطم بها املنا في وقوع الاخصاب المتصل بعائشة ( عشتار ) لا تخلق غير التحدي الذي ( يقبله الرجال دائما ) .

والنتيجة العظيمة لهذا النوع من القلق هي المسئولية العظيمة التي نكمن فيه ومثل هذه الابوة التي يحتضن بها كل انسان تاريخ الانسان كله ماضيه ومستقبله وحاضره هي التي تخلق الارتباط العميق بتغيير الواقع والالحاح عليه .

ان الشعور الذي نتلقاه من بيت المعري :

(سيسأل قوم ما الحجيج ومكة  كما قال قوم ما جديس وما طسم )

الذي يمكن ان يفصلنا عن واقعنا ويجعلنا نحتقر شأنه ونيأس بالتالي من موقفنا في هذا الكون ليس هو الشعور الذي نجده في « الذي يأتي ولا يأتي » .

« ليس ذكر للاولين . والاخرون ايضا الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم . » هذه كلمات الجامعة(٢) ذلك الذي كان يرى ان ( الكل باطل وقبض الريح ) ولكن قصيدتنا لا توفر مثل هذا

---

(١) كاترين باركلي ( وداعا للسلاح ) هيمنجواي .

(٢) سفر الجامعة : الاصحاح الاول : الآية (١١) .

المضمون بل تنقضه وهي تخلق هذا الاحساس الخاص ( الحاد ) بالزمن ليحمل قلق المسئولية الذي يخلق رباطا لا ينفصم بين اي انسان وبين النضال الانساني كله وهكذا يكون خيط النور ( الذي يستمد ضوءه من زيت الدم ) ( .. : يمتد من جيل الى جيل كخيط النور ) هو ( الامل الباقي ) لاي انسان ( يرتبط به ويرفده بدمه وينال شرف مده على استقامته ) .

وخيط النور ( هذا ) هو الذي يشير الى تحقيق نبوءة الانتصار وهو الذي يعطيها ( اليقين ) ، وكل امل متعلق بالمستقبل ( لان العلم اخذ الفردوس المفقود ووضعه امامنا ) ( لا كشيء فقدناه بل كشيء نحن في سبيل تحقيقه ) ، ولهذا فان ( الرجوع الى الماضي ) يجب ان نتناقشه هنا ، لنعرف دلالته .

ان اليأس والامل مرتبطان في القصيدة بالماضي :

اولا : اليأس :

١ ـ القصيدة التي كتبت في نهايات عام ١٩٦٥ تأخذ مدينة نيسابور القديمة رمزا للواقع ( الواقع العربي ) بدلا من تناول هذا الواقع مباشرة ، والقصيدة عندما تقول ( الساسة المحترفون ينجرن خشب التابوت ) او ( الساسة المحترفون ورجال المال والبنوك ـ سادة هذا العالم المنهوك ) او ( ايتها السحابة ! ـ لتغسلي ذوائب المدينة الثرثارة ـ وهذه القذارة . ) فهي لا تتكلم عن نيسابور القديمة ( اياك اعني واسمعي يا جارة ) .

والواقع العقيم يجد رمزه ايضا في بابل المحترفة ( بابل تحت خيمة الليل الى الابد ـ تعوي على اطلالها الذئاب ـ ويملأ التراب ـ عيونها الفارغة الحزينه ) ( بابل تحت قبة الليل ، بلا زاد ولا معاد ـ بلا حتوط ، ترتدي عباءة الرماد ) .

٢ ـ الفشل مع عائشة يجد اكتماله في امتناع الاخصاب في رمز ( عشتار ) البابلي ( لكنما عشتار ـ ظلت على الجدار ـ مقطوعة اليدين، يعلو وجهها التراب ) و ( تموز ) البابلي ايضا ( تموز لن يعود للحياه ) ( العودة من بابل ) .

ثانيا : الامل : ( الذي يأتي ) ياخذ شكل ( من يعود ) كما ( تعود لي عائشة من قبرها المهجور ) واذا كانت العودة ـ كما قلت في بداية القسم الاول من المقال ـ ترمز الى الرجوع الى البكارة والتطهر من ادران عهود القهر التي مرت بها الانسانية ، فان الغريب ان لا يقترن ( البعث ) على الخروج من شروط الحاضر بل ويغير الماضي البعيد ايضا ( بابل تحت قدم الزمان ـ تنتظر البعث ) ( العودة من بابل ) ( لو جمعت اجزاء هذي الصورة الممزقة ـ اذن لقامت بابل المحترقة ـ تنفض عن اسمالها الرماد ـ ورف في الجنائن المعلقة ـ فراشة وزنبقة ) ( وابتسمت عشتار ) ( وعاد اوزريس ) ( ونورت في سبأ بلقيس ) .

ان الملاحظة الاساسية هنا هي هذا ( الرجوع الى الماضي على المستويين التاريخي والاسطوري ) والسؤال الاساسي الذي ينتج عنها هو ( هل هذا الرجوع الى الماضي هروب من الواقع « الحاضر » ؟ ) في اعتقادي ان هذا الرجوع الى الماضي من نتائج الاحساس الخاص بالزمن الذي تحدثنا عنه واذا كان الواقع ( عقيما ) والمستقبل ( لايقينيا من الناحية الحسية ) فان الرموز العظيمة للماضي تكون لغة اساسية ( هذا في حالة التفاؤل ) اما ( في حالة اليأس ) فان ما حدث حتى الان تحت الشمس لا يساوي ( بالنسبة الى الحاضر ) شيئا ، اذا لم تخرج منه ( المدينة الفاضلة المنتظرة ) ويصبح الماضي غير قابل للتصديق ( كأن لم يحدث ) عندما يعجز عن الاشارة الى اي مستقبل .

اما الهروب من الواقع فهو بعيد عن القصيدة تماما فهي تحدد هدفها بصراحة ( وعادت البكاره ـ لهذه الدنيا التي تضاجع الملوك والحجاره ـ لهذه القديسة الهلوك . ـ لو جمعت ، لاندلعت شراره ـ في هذه الهياكل المنهاره ـ لزلزلت مقابر الاسمنت والحديد والبنوك )، وهي تحدد ( المدينة الفاضلة ) وهي ليست تجريدا ، وهي تربط هذه المدينة المنتظرة بالجماهير ( البشر الفانون ) وهي تجعل عمل هذه الجماهير الوسيلة الوحيدة اليها ( ثور حراثة يشق الارض في اصرار)، وهي تجعل لنضال هذه الجماهير رمزا واحدا كبيرا في ( خيط النور ) ( المصنوع من الدم ) .

ومن تصوير القصيدة لواقع ( جحيم نيسابور ) نستطيع ان نعرف ـ على وجه التحديد ـ الحلم ( نيسابور الجديدة ) ( المدينة الفاضلة البعيدة ) . وهكذا رسمت القصيدة صورة الواقع ثم نسجت منها اسطورة الانتصار ( نبوءة صورة على غلاف ) التي تعرف وسائلها في اسطورة النضال ( خيط النور ) . وان هذا الوعي الخاص ( الحاد ) بالزمن هو الذي لقح بقلقه كل جزء من القصيدة وخلق المناضل المسئول عن كل الانسانية في تاريخها ومستقبلها .

مسرح الجيب ـ القاهرة — **خليل سليمان كلفت**


دار الاداب تقدم

# احلام البدء المغلق

## لغدوى طوقان

الديوان الرابع لواحدة من اكبر شعرائنا المعاصرين ، وفيه التعبير المرهف عن ذروة الاسى الذي ما فتيء يحاصر الشاعرة ويجعل قصائدها نسيج وحدها في الشعر العربي الحديث .

يصدر قريبا